باب المقالات

بحث الكلام في الاختلاف (*)

قد نوه الله سبحانه بالاختلاف في الدين وكرر ذلك في كتابه العزيز تكريرا كثيرا لعلمه سبحانه وتعالى بضرره في الدين وكم كرر ذلك في بني اسرائيل قائلا « وما تفرقوا الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم » ونحوها فكأنه يقول احذركم مثل فعلهم مدلين بالشبه وعدم تبين ذلك في دينكم فانكم ان فعلتموه فعلتموه بعد قيام الحجة عليكم ولا يحملكم عليه الا البغي لا التدين وان من اراد الله واتبع رضوانه فانه يهديه سبل السلام ويخرجه من الظلمات الى النور فصدق الله تعالى ما وجدنا الخلاف الا في محل قد تبين الحق فيه ، وادلى المخالف للحق بشيء لا ينبغي الاستناد اليه ، فهو انما جعله صورة والحامل الحقيقي البغي لنيل حظ دنيوي وقد يكون البلاء من النظر في شيء النظر فيه تكلف ما لا يعني وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فنهى عن مظان الخلاف وحذر منها كالجدل في القدر وقال الله تعالى « لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم » وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « اتركوني ما تركتكم » وكل الله سبحانه على لسان نبيه صلى الله عليه وآله وسلم فلم يبق شيء يقربنا الى الجنة الا بينه لنا ولا شيء يقربنا الى النار الا بينه

(*) منقولة عن كتاب العلم الشامخ في ايثار الحق على الآباء والمشايخ لاحد مجتهدي القرن الحادي الذي يطبع بمطبعة المنار

وما عفا الله تعالى عنه وسكت عنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلا يريد الله سبحانه أن نبحث عنه بمجرد عقولنا القاصرة فانها انما جعلت الدنيا في قدر محدود في علم الله سبحانه وجاءت الرسل بتتميم ما تم به النعمة وتؤكد الحجة فما عدا ذلك فضول يخاف ضرره ولا يُرجى نفعه ، وقد قام بمراد الله تعالى في ذلك خير القرون فكانوا يحاذرون الاختلاف أشد المحاذرة ويصرحون بذلك ومافرط منهم تلافوه أشد التلافي ، ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ، كما كان من طلحة والزبير وعائشة رضي الله عنهم ولقد صبر من بقي من الصحابة بعد خلافة النبوة على أمراء الجور أشد الصبر وأقبلوا على صلواتهم وصيامهم وجهادهم وسائر القرب يتواصون بالحق والصبر والمرحمة ، ويحاذرون شق عصا المسلمين وكل ما يجر الى الخلاف وهو المانع والله أعلم لسيوفهم البائرة ، التي استولت على ابطال العرب والاكاسرة والقياصرة ، من أن تجتمع على الملك الجائر حتى يقعد مكانه عادلاً

ثم مضوا الأمثل فالأمثل الى ان ظهرت البدع بسبب التقصير عما سكت الله عنه ورسوله ولو كان لهم من ذلك خير لوفقهم الله على تلك المطالب على لسان رسوله ولم يتركهم يتخبطون لكن النفوس طماحة والدعوى عريضة فتكلم بعض الناس على ما سكت الله عنه وبحثوا في كلام الفلاسفة واختلطوا بهم في أيام الدولتين وناظروهم فاحتاجوا الى تحرير الجواب على شبههم ورأوا ان تلاوة القرآن التي كانت جواب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وجواب اصحابه رضي الله عنهم لا تقنع الخصم ولا تصفه وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوصي امراء الاجناد ان يدعوا الى احدى ثلاث الدخول في الاسلام أو الجزية أو الحرب ، لم

يجعل منها أن تنتشر اخبارهم وصحفهم وحكمتهم وشبههم وفلسفتهم ثم يناظرهم فقهاء الصحابة بهذا الانصاف المولد بعد الصحابة هو الداهية الدهياء

ثم حدثت بين المسلمين أنفسهم نوادر كالكلام في القدر ومسألة خلق القرآن والتعرض لما جرى بين الصحابة رضي الله عنهم واتصل بذلك المناظرة عند الملوك والامراء وصارت عصبية ، والدعوى من الجانبين أن ذلك تدين وما هو الا انهم لما تعدوا طورهم ولم يقفوا على حدهم الذي وقفهم الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم عليه ، تركهم الله وشأنهم ولبسهم شيعا وأذاق بعضهم بأس بعض فكان خليفة يوافق هؤلاء فيذيق مخالفيهم العذاب الاليم ويخلفه الآخر وينقض ما فعله الاول وينكل هؤلاء ويوطي شأن هؤلاء حتى استحكم الشر وصار الناس شيعا ، يولد المولود في قوم فلا يسمع من الانصاف شيئا بل يجد شيعته مطبقين على ان مخالفهم ليس على شيء وانما هي فتنة وحادثة في الاسلام ويمدحون نفوسهم بكل خير وينزهونها من كل شر ويعزون الى المخالف نقيض ذلك

ترى المتزلة يقولون في كتبهم كان الناس على دين واحد فحدث الجبر في امرة معاوية والمروانية ثم حدث القول بتكليف مالا يطاق من فلان وقت فلان ثم حدث القول بعدم خلق القرآن ثم حدث كذا من فلان في وقت كذا مع ذكر أسباب وروايات ، فيأتون على جميع مذاهب مخالفيهم انها حوادث تجد ذلك في حكاية الملل والنحل وافراد المقالات لا في كتاب ولا في الف كتاب ثم تنظر كتب المتسمية بالسنية يقولون كان الناس جميعا قبل حدوث القدرية على ان الله خالق افعال العباد ليس

للعباد منها الا النسبة المسماة بالكسب ويجمعون على كذا وكذا بجميع مذاهبهم كل على مايراه ويعتقده ثم حدث رأي المعتزلة بان العبد ممكن وحدث كذا وكذا الى آخر مذاهب المخالف كذلك وتسمي المعتزلة نفسها بالعدلية وأهل العدل والتوحيد وأهل الحق والفرقة الناجية والمنزهون لله عن النقص وغير ذلك وتسمي خصومها بالمجبرة القدرية المجوزة المشبهة الحشوية المرجئة وغير ذلك . والاشاعرة وسلفهم مثل ابن كلاب والمحاسبي وغيرهم يسمون نفوسهم بأهل السنة ويسمون المعتزلة المبتدعة القدرية ونحن على هذا

فترى الضعيف الرأي والدين بل القوي الذي لم يتداركه الله سبحانه بفضل عنايته وتوفيق يرى تطبيق من نشأ فيهم ولقنوه كتبهم وقد ملأت الارض مع شحنها بالتحذير من كتب المخالف والجلوس الى المبتدع فكما فتله قريش فيملأ قلبه ويطرق سمعه ذلك في كل ماكر والنظر والجم الغفير قد رأيت ماعملوا ، ومن يرد الله هدايته يتهم هذا ويبعده عقله لكن قليل ماهم انما تراه يشب على مادب عليه ويشيب على ماشب عليه ، ويمضي عمر المتدين بالقيام والصيام ، وطالب العلم بالتصنيف والكلام على الخلاف والوفاق ، وربما يعرف المذاهب خيرا من اهلها ويعلم انه قد صار بينه وبين من لقنه مراحل ، ثم همه كله مصروف الى ما نشأ عليه يثبته ويهدم مقابله ، ماتجد خلاف هذا الا في الندرة من النادر من المباحث ولذا تجده يقول في المبحث اذا أراد مخالفة شيعته : الله يحب الانصاف يتبجح بانه قد انصف وهذه الكلمة دليل عدم الانصاف وانه لو كان ديدنه الانصاف كما يدعي لما استغرب هذه النادرة التي وقعت لانه طول عمره يزعمه جار على الانصاف

فهذا مثل من قال فرسي والحمد لله وانا يفعلون ذلك فيما لا ينفر عنهم

بلى قد تجد احدهم ينتقل من مذهب الى آخر بسبب شيخ أو دولة أو غير ذلك من الاسباب الدنيوية والعصبية الطبيعية ولذا تجده ينتقل من مذهب برمته الى آخر برمته كما رووا ان ابن عبد الحكم اراد مجلس الشافعي بعد موته فقيل له قال الشافعي الربيع احق بمجلسي فغضب وتمذهب لمالك وصنف كتابا سماه الرد على محمد بن ادريس فيما خالف فيه الكتاب والسنة هكذا ذكره ابن السبكي وقد علم الله سبحانه والراسخون في العلم ان الحق لم يكن برمته عند فرقة والباطل عند البواقي وان كان كل منهم يدعي ذلك بل عند كل قوم حق وباطل لكن الحق والحمد لله لا يخرج عن مجموعهم وما الحق كله الا عند من بقي على ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم ولا بد له من الخطإ في اجتهاداته ايضا في المسائل المعفو عن الخطإ فيها لا في المهمات فالمفروض انه وقف على ما وقفه عليه الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم فلا خطأ، وقل لي من ذا الذي وقف على ما وقف، ووقع بما جاء عن الله وعن رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، ولم يتمذهب ويؤثر الاسلاف على الكتاب والسنة، ويترك هذا الداء الدوي ويتمسك بالانصاف في ما يأتي ويذر، لا والله ما أعرف أحدا في هذه الكتب التي قد طبقت الارض الا وقد تخبط وخلط، وتعسف لمذهبه وما أنصف، ورد كتاب الله تعالى الى عقيدته وحرف،

اما المتكلمون فهو صنيعهم وان كان في تضاعيف كلامهم ما ينفع في الجملة وصنعتهم بدعة وما ابتدع قوم بدعة الا وتركوا سنة ولا يخلص من الخير الا الشيطان لعنه الله ولكن هؤلاء المحدثون الذين يزعمون الثبوت

على السنة وينهون من الكلام قد سرت فيهم المفسدة اكثر منها في غيرهم لانهم قاعدون في طريق الشريعة والمفسدة والحرب والفتك والحيات والعقارب والسموم والسباع في الجادة اعظم ضررا منها في ثنيات الطريق مع انهم دائبون (١) جاء من الخوض في الكلام وصاروا أشد عصبية من المتكلمين لان المتكلمين بنوا أمرهم على التفتيش وان لا يلام الطالب على المباحثة وايراد الاسئلة واختراع التعليلات بل يعدون ذلك ظرافة وكمالا فربما انكشف للمتأخر مع تعاقب الانظار تقارب كلام الفريقين وعلى ذلك كما انكشف لاتباع الاشعري بطلان الجبر ثم تشبثوا بالكسب ثم تبين عواره فصاروا الى مذهب المعتزلة من حيث المعنى كما مضى وليس ثبوت الاختيار يختص بالمعتزلة حتى ينفر عنه انما هو دين الله وحجته فمن حقق من المتأخرين هون ما عظم سلفه ولا نت عريكته، وأما المحدثون فانما أخذوا شيئا بأول رؤية ثم لم ينفروا كأن ذلك بدعة وصدقوا ولكنه بدعة من أوله الى آخره فما لهم دخلوا فيه، كان دخولهم من غير نية لكن دس لهم الشيطان: انتم أهل السنة فمن ينب عنها ان تركتم هؤلاء؟ فلا هم اقتصروا على ما هم عليه ولا هم بلغوا الى مقاصد القوم ليتمكنوا من الرد عليهم

---

(١) لعل الاصل «مع ان دابهم»